البطل اللبناني

يوسف فرنسيس الحاج

١٨١٩ – ١٨٩٢

بقلم جرجي ابراهيم نَصر

في كلّ عصرٍ من العصور ، ينبتُ رجال عظام ، وأبطال مغاوير ، يخدمون وطنهم بنبوغهم ، وعبقريتهم ، وكفاحهم ، فيدوّن التاريخ أسماءهم بهالة من نور على صفحات الخلود .

من هذه الفئة الكريمة ، البطل اللبناني الشهير يوسف فرنسيس الحاج ، الذي جاهد في سبيل لبنان ، وامتشق السيف في وجه الظلاّم ، وقضى العمرَ عاملاً على خدمة وطنه ، فترك حسن الذكر وطيب الأحدوثة .

وُلد المترجم له في حاصبيا سنة ١٨١٩ من أبوين كريمين : فرنسيس الحاج وحنّة ابنة الخوري مخايل الاشقر الشبابي ، وطواه الموت في القليعة قضاء مرجعيون في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٨٩٢ . ولكنّ تاريخه ظلّ صفحةً خالدةً من صفحات البطولة والفروسية . وقد كان جدّه لبّوس بن يعقوب ابن الحاج مخائيل [1] الحكيم ابن الحاج موسى ، قد هاجر من قيتولي الى حاصبيا في منتصف القرن الثامن عشر ، والتحق بخدمة الامير اسماعيل الشهابي ، وتزوّج فيها فأولد فرنسيس الذي عُرف بالشجاعة والفروسية ، وتثقّف بثقافة عصره

(١) كان الحاج مخايل الحكيم رجلاً ثرياً بدليل ما جاء في مجلة « المنارة » المحتجبة ٢ : ٧٢٠ نقلاً عن شرطونية الدويهي ، من أن المطران سمعان عواد (البطريرك) وسم الخوري انطونيوس ابو نصر من بكلسين ، كلاهما على مزارع الحاج مخايل الحكيم في اقليم جزين في ٨ آذار سنة ١٧٢٩ ؛ ومن مراجعة مصادر تاريخية مختلفة تبين لنا ان الحاج موسى والد الحاج مخايل ، نزح من معاد في القرن السابع عشر واشترى قيتولي من دروز فيما يبلغ خمسمائة قرش .

التي أهّلته الى التوظّف في الحكومة . وكان على إلمام بالطبابة المكتسبة بالخبرة بما تلقّنه عن أبيه ، الذي كان يتقن هذه الصناعة والتي حذقها في عصره ، حتى أنّ الأمير بشير الشهابي . قرّبه اليه واستعان بمعارفه وخبرته الطبيّة . ووضعه تحت تصرّف الجيش المصري أثناء قدومه لهذه البلاد ، ومن مآثره التقوية التي تدلّ على فضائله المسيحية وتعلّقه باهداب الدين : انه وقف كرم زيتون في كوكبا الى دير مار انطونيوس في حزين بتاريخ ٥ تشرين الأول سنة ١٨٢٤ . وقد ذكر هذه المبرّة الاستاذ سعيد رزق في كتابه « تاريخ جزين » صفحة ٢٤٣

وتلقّى يوسف مبادئ العلوم العربية على والده وبعض أدباء عصره . ثم أخذ عن الدكتور ميخائيل مشاقه . الأدب والموسيقى . وتعلّم التركية مع أمراء الأمير الشهابي كما تعلّم ضرب السيف . واطلاق البارود . ولعب الجريد على نسيبه الشيخ عماد الهاشم العاقوري المشهور باقدامه وفروسيته.

ونشأ مثل أبيه شجاعاً ، مُغامرًا يميل الى الفروسية ومصارعة الاقران في الميادين بضرب السيف ورمي الجريد ، فتفوّق في هذا المضمار على معاصريه من الفرسان والأبطال .

وتزوّج من شاهينه ابنة الشيخ منصور يمّين من حاصبيا سنة ١٨٣٨ وانصرف الى العناية بشؤون عائلته ، وبعد سنة من زواجه رُزق ابنته البكر « عليا » التي حاكتْ الرجال اقداماً وشجاعةً .

وبدأتْ الفتن تكتسح لبنان ، ونشبتْ الثورات بعد احتلال الجيش المصري للبنان ، ونفي الأمير بشير الشهابي سنة ١٨٤٠ ، فانتهز فرصة الاختلال بالحكم ، بعض الرعاع للسطو والسلب والقتل ، فلم يجد بدًّا من امتشاق الحسام لدفع شرّ اللصوص ، وسفّاكي الدماء ، والعمل على قمع الفتن ، وتهدئة الحال ، والحيلولة دون تفشّي داء العصبية الطائفية البغيضة ، التي كان يُثيرها في لبنان ، الدول ذات المطامع ، وذوو الأغراض الخبيثة من الزعماء . ..

وفي سنة ١٨٤٣ انتخبه الأهلون على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم وميولهم ، شيخ شباب وادي التيم ، في اجتماع عقده الأمير سعد الدين الشهابي ، نظرًا لما رأى فيه من بسالة وجرأة ، وما خبره به من تضحية واخلاص ووطنية .

وفي هذه السنة قاد حملةً لقتال الثائر زعيم أكراد سوريا ، عمر آغا البوزلي الذي اجتاح وجماعته منطقة « الحولة » وأمعنَ في السلب والقتل ، فأبلى يوسف فرنسيس بلاءً حسناً ، وتفوّق على الاقران بحذقه للفنون الحربية ، واتقانه تنظيم

الخطط فضلاً عن إقدامه وبسالته ، فرّق عصابة ذلك الزعيم شرّ ممزّق في معركة « خيام عبّس » .

وفي سنة ١٨٤٥ كان القائمون بالأمر لا يزالون يرمون الى سياسة التفرقة بين الطوائف وتفكيك عُرى الوحدة الوطنية ، فنشبتْ ثورة قاسية محزنة ، اتخذتْ طابعاً قاسياً من العنف والقتال والحريق ، فقاد حملة النصارى في معركة وادي التيم ، على رأس قوّة مؤلّفة من اربعمائة محارب ، ضد عدوّ يفوقه عدّةً وعدداً وانتصر في كثير من المواقع ، بعد أن أنزل بممزّقي شمل الوحدة ، ودعاة الفتنة ، خسائر كبيرة . وانتصر ايضاً في معركة حوش القنعبّة في راشيا الوادي في السنة نفسها . تلك المعركة التي امتدتْ من شمالي حاصبيا حتى رحله . والتي دام فيها القتال نحوًا من خمسين ساعة ، وقد أبلى فيها البلاء الحسن ، فلمع اسمه واشتهر أمره .

وفي سنة ١٨٥٤ كُلِّفَ من قبل الأمراء الشهابيين بنجدة تامر بك الحسين الذي كان يتنازع ونسيبه علي بك الأسعد على حكم جبل عامل ، ولكنه آثر أن يوفّق بينهما حرصاً على الخير العام وحفظاً للسلام ، ولمّا عزّ عليه اصلاح الأمر ، ناصرَ تامر بك زمناً ما ، ثم وقف موقف الحياد ، بعد تدخّل أحمد باشا الصلح ، المتوفى سنة ١٨٩٤ ورغب اليه تامر بك أن يصحبه الى مصر لزيارة عبّاس باشا لأمور سياسية ، فنزل عند طلبه ، وواكبهما إثنا عشر فارساً ، وفي الطريق هاجمهم نحوًا من مئة فارس من البدو في محلّة بئر عبد في جزيرة سينا ، فهزموا المهاجمين وكبّدوهم خسائر كبيرة ، ولدى وصولهم الى مصر ، حلّوا ضيوفاً مكرّمين على عبّاس باشا الذي توفي بعد مدة وجيزة ، ولمّا عاد الى بيروت تلقّى بشرى تعيين صديقه الأمير بشير أحمد اللمعي (١٨٥٤ — ١٨٦٠) قائمقاماً على النصارى .

كان رحمه الله لحسن سياسته ، وبعد نظره ، وحسن تدبيره ، موضع تقدير واحترام لدى أولياء الأمر وأعيان البلاد ، فانتدبوه مرارًا لحلّ مشاكل مستعصية ، كان يقضي فيها بروح العدل والانصاف ، منها أنّ الأمير بشير أحمد اللمعي ، انتدبه لإزالة سوء التفاهم ، واجراء مصالحة حبيّة بين آل الأعور وآل هلال في قرنايل بعد أن تعكّر الجوّ بينهما ، فقام بما عُهد اليه به خير قيام ، كذلك أصلحَ ذات البين بين يوسف بك كرم وشقيقه مخائيل ، وهكذا كان شأنه مع جميع المتخاصمين ، يُصلحُ ما بينهم ، ويؤلف قلوبهم في سبيل جمع كلمة المواطنين واعلاء شأن الوطن .

وقضى نكد الطالع أن يُعكّر جوّ الصفاء والتفاهم في هذا الوطن التعس: فقد أخذت الدولة العثمانية: تعمل في لبنان بمبدأ « فرّق تسد » فبذرت بذور الشقاق والتفرقة بين المواطنين: ورأت الوقت المناسب لتمزيق شمل اللبنانيين: فأشعلت نار تلك الفتنة الجامحة المشؤومة سنة ١٨٦٠ التي التهمت نيرانها المدن والقرى. فروّعت الأطفال وقضت على الشيوخ والشبان، وأحرقت الدور والقصور وعمّ الخراب والدمار رغم ما حاوله العقلاء.

وقد نزل الشيخ يوسف الى ساحة الحرب ملبياً دعوة الواجب المقدس: وانقض على الثوار في معاقلهم، فهزمهم: ودكّ حصونهم، وهدّ عزائمهم: وأفسد خططهم: ورمى الذعر بين صفوفهم، وقد أظهر كثيراً من ضروب البأس والشجاعة.

وهبّ الى الدفاع عن جزين على رأس قوّة من ابطاله: وأشار على الجزينيين في موقعة « عذّيبه » إتخاذ خطّة المهاجمة وتوحيد الصفوف بدلاً من خطّة الدفاع والتفرقة: فخالفه في الرأي وجهاؤها: فكان ذلك من أسباب انهزام الجزينيين رغم ما ابداه من ضروب البسالة والإقدام: فانه رغم سقوط جواده واصابته بجرح بليغ ظلّ في ساحة الحرب يدافع دفاع المستميت: ويقاوم ويشدّد العزائم. ويكتسح الصفوف: حتى أصيب برصاصة نفذت من خاصرته فدهش أعداؤه لما رأوه من جرأة وشجاعة. وكان أكثرهم إعجاباً بفروسيته سليم شمس الحاصباني: واضطرّ الى الإرتداد الى ما وراء المتاريس، وعثرت به فرسه: فأسرعت الى نجدته: البطلة الشجاعة نور طنوس يوسف عطيه زوجة يوسف تزحيا غانم من بكاسين التي كانت تحارب مع البطل ابي سمرا غانم، فاستلّت سيفها وقطعت به حبال سرج الفرس: وساعدت يوسف فرنسيس على الفرار.

وبعد هذه المعركة نزل الى صور: ومنها نقلته سفينة الى جونيه، وعاده فيها الجنرال « بوفور » قائد الحملة الفرنسية: واثنى على شجاعته واقدامه. وقدّم له سيفاً عربياً ثميناً باسم الامبراطور نابليون الثالث.

ولمّا تألفت لجنة دولية للتحقيق في أسباب هذه المجزرة الهائلة وتأديب المعتدي نفى التهمة عن إخوانه الدروز باباء وشرف، وألصقها بالحكومة العثمانية التي كانت هي وولاتها، الدافعة الأولى الى إيقاظ هذه الفتنة المروّعة.

وبعد الفتنة المشؤومة التي أدمت قلبه وقلب كل مواطن، نزل الى بيروت

فأقام فيها مدة ، فاستدعاه داود باشا متصرف لبنــان ليوليه منصباً رفيعاً ، فأبى معتذراً، لأنه كان يكره الوظائف ويؤثر الاستقلال بنفسه .

وفي سنة ١٨٦٦ اقتنى أملاكاً وارزاقاً واسعة في منطقة « الخولة » ومرجعيون فاستوطن بلدة « القليعة بين شذاذ من مختلف الطوائف ، فحمى حماها بسيفه وبأسه ، وجمع كلمة ابنائها ، فصمدوا للاعداء ، وملأوا قلوبهم رهبــة ورعباً .

وكان من واجبه أن يكفي تلك البقعة المترامية الأطراف، المجاورة للبادية ، شرّ اللصوص ، وقطّاعي الطرق من قبائل العربان ، الهيب والحمدون ، الذين كانوا يغيرون عليها للسلب والنهب ، كما كانوا يروّعون السكان ويزعجون الحكام فلجأ الشيخ يوسف الى البطش بها ، واتخذ سلطة الحاكم في تنفيذ أحكامه . فكان يُعدم اللصوص رمياً بالرصاص أو يقطع أيديهم ، ويعتقل الزعماء والثائرين منهم ، ويكبّلهم بالأغلال .

وكان من عمله هذا يهدف الى حماية الضعيف ، وصيانة الحقوق ، وتوفير الراحة والأمن للمواطنين في تلك البقعة النائية التي رزحت وقتاً طويلاً تحت نير الثائرين والمغتصبين ، بعد أن عجزت الحكومة عن تأديبهم .

وهكذا وضع يوسف فرنسيس حداً للغزو والإجرام ، وبسط سلطانه على تلك البقاع ، فلاقى عمله استحساناً وتأييداً من جميع الطوائف ، وشاع اسمه ، وانتشر صيته ، فخافه الأشرار ، ورتع الناس في بحبوحة الأمن .

واستغاثت القبائل بوالي سوريا الذي كان يشجّع أعمال الإجرام، فسيَّر شرذمة من الجند للإيقاع بالشيخ يوسف بقيادة زعيم سوريا الأكبر أحمد باشا الشمعه ، الذي حرص قبل مهاجمة الشيخ يوسف ، على الاجتماع به ، وتوجيه اللوم اليه ، لاستئثاره بسلطة الحكومة في تأديب العربان المعتدين . فأجابه الشيخ يوسف قائلاً : لقد رفعتُ مع المواطنين مئات من الشكاوي، وطلبنا حماية هذه المنطقة من العابثين بالأمن والمجرمين من القبائل المتمرّدة ، فلم ننل سوى الوعود، لهذا اضطررتُ مرغماً الى أن أصون أرزاق الأهلين ، واحمي المظلومين ، وأوفّر الراحة للنازلين في هــذه البقاع ، فاقتنع الباشا لكلامه وعاد أدراجه الى دمشق .

وتوالت الوشايات بحق الشيخ يوسف فرنسيس ، للشدة والبطش والأساليب التأديبية التي كان يستعملها في تأديب الثائرين المتمرّدين على القانون ، فجرّد

والي بيروت حملة عليه ، واعتقله ، وعاد به عن طريق النبطيه ، فاستقبلته بشيبها وشبانها . وأولمت له وللعساكر ولائم ، دلّت على محبة الأهلين إياه . وتقديرهم لأعماله . لأنها كانت تحترمه . وهكذا استقبله بكوات آل الدرويش في المروانيه . وفي صيدا خرج سراتها وأعيانها فاستقبلوه بمظاهرة وحماس ، وفي بيروت استقبله اعيانها في الحرج وفي مقدمتهم الحاج محيي الدين بيهم وعمر آغا الغزاوي وعبد الرحمن فتح الله . فأوقف تمهيداً لمحاكمته ، ورفعت الاحتجاجات من جميع الطوائف الى المراجع ذات الشأن ، وشاءت العناية أن يموت الوالي بعيداً فجأة في نابلس . فتبلّل المسلمون قبل سواهم ، وخرج الشيخ يوسف من سجنه بعد أيام موفور الكرامة ، ناصع الجبين .

إنّ أعمال الشيخ يوسف أشبه بالأساطير . ومما يروى عنه ، انه اعتقل يوماً ثائراً خطيراً عاثَ في البلاد فساداً ، فاحتشد أنصاره على حدود « دفنا » الشرقية بضواحي الحولة ، وهم يهزجون ، ويطلقون العيارات النارية بقصد الإرهاب لفكّ أسر الثائر ، ولكنهم لم يجرأوا على مهاجمته ، لما كانوا يعرفونه من إقدام وبطش . الشيخ يوسف ، وبعد أن رُبطَ هذا الزعيم الثائر بعقال الخيل ، عُرِض مدة ثلاثة ايام على بيادر « دفنا » على طريق القوافل ، ليكون عبرةً لسواه ، وبعد وساطات وشفاعات أطلق سراحه ، فاستقرّ الأمن في هذه المنطقة التي كانت مسرحاً للصوصية والإجرام .

وكان رحمه الله من هواة تربية الخيول ، العارفين بأصولها ، فاقتنى الكثير من مختلف أجناسها من كحيلا عجوز ، ومن حمداني سامريّ وصقلاوي جدران ، ومن « العبيّا » و « المعنّقي » فاشتهرت أفراسه في أنحاء لبنان وبادية الشام ، وألّف كتاباً موسوماً باسم « سراج الليل في سروج الخيل » ألمّ فيه بأوصاف الخيول وأصولها وطرق تربيتها ، وفضّلها على سائر الحيوان ، وكان في داره ثلاثون فرساً من أصائلها .

وكان له إلمام تامّ بالطب القديم الذي ورثه عن ابيه ، فكان يعالج مجاناً الفقراء ، ويضمّد جراحهم ، ويقوم بالعناية بهم ، كما كان كريماً مضيافاً ، فكانت داره في التليعه وفي دفنا ملتقى الضيوف ومأوى اليائس والملهوف .

وكان وفياً في صداقته ، ينسى الإساءة ، ويذكر المعروف ، وقد أطلق عليه البطريرك الأورشليمي منصور براكو المتوفي سنة ١٨٨٩ لقب حامي النصارى في الشرق .

ومن مآثره انه واكب المطران بطرس البستاني مع أشباله وابنته عليا وكوكبة

من فرسانه وهو في طريقه الى منفاه في القدس سنة ١٨٧٨ ؛ وقد سجّل له هذه المأثرة وأشاد بغيرته الوطنية والدينية المرحوم الخوري ابراهيم حرفوش ، في كتابه تاريخ البطريرك الحويك .

وكان يقوم بفرائضه الدينية مع عائلته في كل يوم ؛ وقد ورث هذه العادة الحميدة عن آبائه واجداده ؛ فيتزوّدون القربان المقدس من يد كاهن الرعية الخوري بطرس رزق . وقد توفي هذا الكاهن البار فجأة في القليعه صباح الخميس في ١٥ من كانون الثاني سنة ١٨٩١ ودفن فيها باكرام .

كما أنّ للشيخ يوسف آثارًا كثيرة ناطقة بفروسيته وشجاعته ونصرته لدينه وأبناء وطنه واقتحامه للاهوال . وردده للعصابات ، وبشر روح الفروسية والإقدام بين مواطنيه وأبنائه ، ووقوفه الى جانب الحق في الحالات التي كان يضطرب فيها حبل الأمن وتسود الفوضى .

بناته وأبناؤه

ولقد أنعم الله عليه ، ببنات وأبناء بررة ؛ غرس في قلوبهم ؛ محبة الدين والوطن ؛ وحفظ الوصايا ، والطاعة للرؤساء الروحيين والزمنيين ، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف ، وإعالة المعوز والفقير ، وقد اعتمدتُ في الكلام عنهم على وثيقة خطيّة محفوظة لدى حفيده الشيخ سعيد سليم فرنسيس . وقد اشتهرت ابنته « عليا » المولودة في حاصبيا سنة ١٨٣٩ ، التي نشأتْ على غرار ابيها ، بالشجاعة والبطولة ؛ حتى بزّت الرجال باقدامها واتقانها للفروسية والفنون الحربية ، كما أخذتْ عنه فن الطبابة العربية ؛ فمارستْ هذه المهنة طوال حياتها بدقة واتقان ، فكانت تُعنى بعلاج السيدات ، ولشدة ورعها وتقاها أحبّتْ أن تنخرط في سلك الرهبانية الأنطونية في دير جزين للابتعاد عن شرور العالم ، فلاقت ممانعة شديدة من والديها ؛ فقررت أن تكرّس حياتها ؛ وهي بين الناس ، لله وخدمة الوطن ؛ وحدث أنّ جماعة من الاشرار أخذوا يتألّبون في تربة الحوارنة ، قرب حاصبيا ؛ لمهاجمة نصارى الاقليم ؛ فقادتْ فريقاً من رجال ابيها ، وردّتهم على أعقابهم ، بعد أن فقدوا ثلاثين قتيلاً ولم تخسر هي سوى جريح واحد ، وهكذا أصبح الأشرار يخشون بأسها وصولتها ويقدّرونها حق قدرها ، وقد ناصرت والدها واخوتها في عدّة معارك شهدتْ لها بالشجاعة والاقدام ، وكثيرًا ما كانت تتغلّب على الصعوبات التي كانت تعترض سبيلها ؛ لبُعْد نظرها وعمق تفكيرها وحدّة ذكائها ؛ وقد تعرّضت قافلتها ذات يوم في طريقها الى بيت المقدس ،

لجرم عربان قبيلتي . الذيب والحمدون . فهزمتهم شر هزيمة ؛ وقد قاست عليا أهوال الحروب ؛ وشهدت مجازرها الرهيبة فالتاع قلبها أسىً وحزناً ؛ وصحبتها تلك الذكريات المؤلمة حتى المات . وكانت رحمها الله من أعضاء اللجنة المكلفة وضع شروط الصلح بين النصارى والدروز سنة ١٨٦٠ فألصقت التهمة كوالدها بالدولة العثمانية بكل جرأة ؛ مدللة بذلك على نزاهة وخبرة وضمير حيّ .

وفي الحرب الكونية الأولى ؛ وقفت إيرادها على الجياع ؛ وتطبيب الفقراء ومعالجتهم . بمعاونة شقيقتها مريم (١٨٥٠—١٩١٦) التي كانت تساعدها في هذه المهمة الانسانية ؛ وظلّت تقوم بفرائضها الدينية الى أن لبّت نداء ربّها في القليعه السبت في اول تموز سنة ١٩٢٣ وأقيم لها مأتم حافل ودفنت الى جانب أبيها وأخوتها مأسوفاً عليها مذكورةً بمآثرها وبطولتها وحسناتها .

وأما أبناؤه فقد نهجوا نهج أبيهم ؛ فكانوا حُماة الوطن ؛ وملاذ الفقراء . ونُصراء الضعفاء بحيث حافظوا على شهرة أبيهم وحموا حمى مواطنيهم وهم : **ملحم** (١٨٤٢—١٨٩٢) كان من خيرة الرجال اقداماً وبسالةً ؛ رافق والده في كثير من المواقع الحربية ، وطارد العصاة والعابثين بالأمن ، فخشوا بأسه . أصيب في مطلع سنة ١٨٩٢ بداء الجنب ، فذهب مأسوفاً على شبابه وبطولته . **سعيد** (١٨٤٦—١٨٩٢) اشتهر بمواقفه البطولية وبجرأته وتأديبه للعربان المتمردين ؛ راعه وفاة أخيه ؛ فاستسلم للحزن واليأس وقضى نحبه بعده بأشهر معدودة فكان المصاب به أليماً موجعاً . **سليم** (١٨٥٣—١٩١٦) تثقّف بثقافة عصره واشتهر كوالده بالبطولة وحبّ الخير والوئام؛ انتدبه بطريرك الروم الكاثوليك عضواً في مجلس طائفته لأبرشية صيدا ومرجعيون لفضّ المنازعات والتأليف بين الطوائف وكانت وفاته في القليعه في ٢٠ نيسان سنة ١٩١٦ . **أسعد** (١٨٥٦—١٨٩٨) كان أديباً شاعراً عُرف باتقان ضرب السيف واطلاق الجريد ولعب الفروسية وركوب الخيل، عُيّن عضواً في محكمة القضاء البدائية ، وكان يحسن اللغة الفرنسية ويجيد نظم الشعر في اللغة العربية ، كما كانت له علاقات ودية مع الطوائف الدرزية والشيعية والاسلامية ، أصيبَ بحمّى خبيثة في مزرعة دقنا بضواحي الحولة ؛ وتوفي في اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٨ ودفن في القليعه .

وفاته

وبعد أن بلغ الشيخ يوسف الثالثة والسبعين من عمره ، أصيبَ بانهيار

شديد وانحطاط قويّ في قواه الجسدية : وذلك نتيجة جهاده الطويل وحزنه على ولديه اللذين فقدهما الواحد بعد الآخر . وأخذ نوره يخبو رويداً رويداً . ولكنه ظلّ حتى وفاته : سليم العقل : متقد الذهن : يستقبل رغم مرضه زائريه : ويقص عليهم : أخبار عصره : ويزوّدهم بالنصائح : ويدعوهم الى الإستماتة في حب الوطن والدفاع عنه ، وقد لبى داعي ربه في القليعه يوم الجمعة في ٢٥ من تشرين الثاني سنة ١٨٩٢ مأسوفاً على بطولته وبرّه وإحسانه .

وقد شُيّع جثمانه باحتفال رائع ، شهده أعيان جميع الطوائف. ومشى وراءه الشعب باكياً آسفاً على فقده . مشيداً بمآثره . وبلغ من شدّة حزن ابنته « عليا » أنها أخذتْ تُحاول منعهم من مواراة الرفات في التراب. وأصرّتْ على أن يُدفنَ في داره ، لتظلّ الى جانبه . ولم ترضَ بنقل الرفات إلاّ بعد أنْ بذل لها الرؤساء ورجال الاكليروس النصائح، ولم تبرّد لوعتها ، ولا جفّتْ عبرتُها ، حتى وافاها الأجل المحتوم ، فجمع الموت بين البطلين : بعد أنْ ضمّتهما الحياة في الجهاد والوجاهة والوطنية .

وظلّت ذكرى هذا الفقيد العظيم تتداولها الألسن : ويُحدّثُ بها الآباء : الأبناء والأحفاد ، وقد طالما سمعتُ وأنا في مقتبل العمر ، شيوخ قريتي بكاسين وأدباؤها يتسامرون ويتنادرون بأحاديث هذا البطل المغوار، ولا سيما نسيبي المعلم المرحوم خليل ضاهر ابي عيد ، الذي دوّن الكثير من أثار هذا البطل ورثاه بمرثاة رقيقة نذكر منها ما يأتي :

بكت البلادُ غضنفرًا سامي المدارك والمشاعرْ
عالي الصفات وما له بذوي البسالة من نظائرْ
عفّ اليدين من المآ م طاهرٌ صافي السرائرْ
تعنو له في جوّها شتى البزاة من الكواسرْ
عذبُ الحديث كأنه مُزن الغمائم وهو ماطرْ
واذا تقدّم للوغى هزم المواكب والعساكرْ
مهما تكاثرت الصفوف وأحدقتْ فيه المخاطرْ
وتلاطمتْ أمواجُها وتزايدتْ حُمّى الدوائرْ
عرَفَ السّيل الى مُلافاة م الموارد والمصادرْ
ماذا أقولُ وفي الحشا ما دونهُ حرّ الهواجرْ

والدمعُ سحَّ يفيضُ من مجرى القلوب أو المحاجرْ
لو استطيعُ لقلتُ ما برَّ الأوائلَ والأواخرْ
من ذا الذي عُقدتْ عليه سواك ، في الأمس الخناصرْ
وأتى يُشرّفُ جيلَهُ من غابرٍ منه وحاضرْ
أذكرْ ولا تنسَ البنينَ من الكبارِ أو الأصاغرْ
أصنامهمُ ذاك الصدودُ وما بهم للبين صابرْ
لا الدمعُ في الآماق جفَّ ولا انطوتْ تلك المآثرْ
ولقد وقفتُ عليكَ دمعَ العين ، أو دمعَ المحابرْ
بلَّتْ ثراكَ مراحمٌ وحنينُ دمع خليل ضامرْ

١٨٩٢